جهود الإمام الشافعي في علم الجغرافيا

د. سيد عبد الخالق السيد عرفان
أستاذ الجغرافيا التاريخية المساعد
قسم الجغرافيا . كلية الآداب
جامعة حلوان

د. عبد القادر إبراهيم عطية حماد
أستاذ جغرافية السياحة المساعد
قسم الجغرافيا . كلية الآداب
جامعة الأقصى

ملخص البحث

بالرغم من نبوغ الإمام الشافعي في كافة ميادين العلوم والمعرفة وغيرها، إلا أنه نال الحظ الأكبر من التركيز في بعض الميادين مثل الفقه وعلوم القرآن على حساب الفروع الأخرى مثل الجغرافيا، بالرغم من أن كتبه ومؤلفاته تتضمن العديد من الموضوعات الجغرافية في شتى ميادين الجغرافيا، والتي لم تجد اهتماماً كبيراً من الباحثين خاصة الجغرافيين منهم.

وتعد إسهامات الأمام الشافعي في علم الجغرافيا ذات قدر ليس بالقليل، وتمثلت في التعرض لأكثر من فرع من فروع علم الجغرافيا الطبيعية والفلكية والبشرية والاقتصادية وجغرافية النقل والرحلات وجغرافية الخدمات التعليمية.....الخ.

واستسقى الإمام الشافعي معلوماته الجغرافية من خلال تنقله ورحلاته بين البلاد العربية من فلسطين إلى مكة واليمن والعراق ومصر، وساعده على ذلك، بصفة خاصة، انه كان شديد الذكاء، سريع الحفظ، مما ساعده في أن يضيف ويسهم في علم الجغرافيا. ومن المبدع إننا نجد أن الأمام الشافعي دائما يذكر علم الجغرافيا حتى في أقواله المأثورة.

وتتمثل أهمية موضوع الدراسة في أنه يركز على جانب مهم من الجوانب العلمية التي نبغ بها الإمام الشافعي وهو إسهاماته في علم الجغرافيا، وقد اتبعت الدراسة المنهجين التاريخي والوصفي.

تمهيد

قلائل هم الرجال الذين يشغلون الناس في حياتهم وبعد مماتهم بعلمهم وعقلهم، ومن هؤلاء الرجال الإمام الشافعي، فقد شغل الناس بعقله وعلمه في مكة، ونجران، وبغداد، والقاهرة، في حياته، وشغل العالم الإسلامي كله بعد موته. وشهد له شيوخه، ورفاقه وتلاميذه شهادات لا تنسى (فياض، ١٩٩٦، ص ١٠٩).

وقد برع الإمام الشافعي في كافة فروع المعرفة من علوم القرآن إلى الحديث الشريف إلى علوم اللغة العربية مثل العروض والنحو والشعر والبلاغة، وكذلك التاريخ والجغرافيا والسير..... الخ.

وبالرغم من نبوغ الإمام الشافعي في كافة هذه الميادين وغيرها، إلا أنه نال الحظ الأكبر من التركيز في بعض الميادين مثل الفقه وعلوم القرآن على حساب الفروع الأخرى مثل الجغرافيا، بالرغم من أن كتبه ومؤلفاته تتضمن العديد من الموضوعات الجغرافية في شتى ميادين الجغرافيا، والتي لم تجد اهتماماً كبيراً من الباحثين خاصة الجغرافيين منهم، مما دفعنا إلى هذه المحاولة لإماطة اللثام عن ما خلفه الإمام الشافعي من تراث جغرافي جدير بالبحث والدراسة والتدقيق.

١- أهمية الموضوع:

تتمثل أهمية الموضوع في أنه يركز على جانب مهم من الجوانب العلمية التي نبغ بها الإمام الشافعي وهو إسهاماته في علم الجغرافيا، حيث يحاول البحث التعرف على إسهاماته في شتى ميادين علم الجغرافيا، والتعرف على مدى تأثره بالبيئة الجغرافية خاصة وانه قام بالعديد من الرحلات العلمية في حياته.

٢- منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهجين التاريخي والوصفي.

٣- حدود الدراسة:

تبدأ حدود الدراسة منذ أن شق الإمام الشافعي طريقه نحو العلم والمعرفة متنقلا بين البلدان والأمصار المختلفة حتى كون مذهبه العلمي.

٤- الدراسات السابقة:

لا توجد حسب علم الباحثين أية دراسات تناولت إسهامات الإمام في علم الجغرافيا رغم أهميتها، فجميع الدراسات ركزت على اسهامته في علوم القرآن والحديث والفقه..... الخ، فهذه هي الدراسة الأولى في هذا المجال.

المبحث الأول

التعريف الأمام الشافعي:

في مدينة غزة، بفلسطين، وكانت آنذاك جزءاً من الشام الكبير، ولد محمد بن إدريس الشافعي سنة ١٥٠ هجرية في عهد الدولة العباسية، وهي السنة نفسها التي توفى فيها الإمام أبو حنيفة.

وكان أبوه قرشياً مطلبياً فهو إدريس بن العباس، بن عثمان، بن شافع، بن عبيد، بن عبد يزيد، بن هاشم، بن عبد المطلب، بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي نسب الشافعي مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المطلب جد الشافعي الأكبر هو الذي ربى بن أخيه عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد انضم بنو المطلب مسلمين وغير مسلمين إلى نصرة بني هاشم، حين قاطعت قريش الرسول ومن يناصره، ولذلك جعل النبي لبني المطلب نصيباً في سهم ذوي القربى في الفئ، ولم يجعل نصيباً في هذا السهم لبني عبد شمس، وبني نوفل، القرشيين، وهما أخوا المطلب وهاشم. ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، معللاً هذا الاختصاص لبني المطلب:"إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد"، ثم شبك رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى يديه في الأخرى (فياض، ١٩٩٦، ص ١٠٩). وكان والده

إدريس خرج من مكة الى غزة في حاجة له، فمات بها و أمه حامل به فولدته فيها ثم عادت به بعد سنتين إلى مكة.

و قد حفظ الشافعى القرآن في سن السابعة و حفظ موطأ مالك فى سن العشرين، وكان شديد الذكاء شديد الحفظ حتى إنه كان يضع يده على المقابلة التى يحفظها لئلا يختلطا، حيث أنه كان يحفظ من أول نظرة للصفحة.. و قد إختلط الشافعى بقبائل هذيل الذين كانوا من افصح العرب فاستفاد منهم و حفظ أشعارهم و ضرب به المثل فى الفصاحة.

وتلقى الشافعى فقه مالك على يد الأمام مالك و تفقه فى مكة على يد شيخ الحرم و مفتيه (مسلم بن خالد الزنجى) و (سفيان بن عيينه الهلالى) و غيرهما من العلماء ثم رحل إلى اليمن ليتولى منصبا جاءه به (مصعب بن عبد الله القرشى) قاضى اليمن ثم رحل إلى العراق سنة ١٨٤ هـ وأطلع على ما عند علماء العراق وأفادهم بما عليه علماء الحجاز و عرف (محمد بن الحسن الشيبانى) صاحب أبى حنيفة و تلقى منه فقه أبى حنيفة، و ناظره فى مسائل كثيرة ورفعت هذه المناظرات إلى الخليفة هارون الرشيد فسر منه، ثم رحل الشافعى بعدها إلى مصر و إلتقى بعلمائها وأعطاهم وأخذ منهم، ثم عاد مرة أخرى إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ فى خلافة الأمين، وأصبح الشافعى فى هذه الفترة إماما له مذهبه المستقل ومنهجه الخاص به و إستمر بالعراق لمدة سنتين عاد بعدها إلى الحجاز بعد أن ألف كتابه (الحجة)، ثم عاد مرة ثالثة إلى العراق سنة ١٩٨هـ، وأقام بها أشهراً ثم رحل إلى مصر سنة ١٩٩ هـ، ونزل ضيف عزيزا على (عبد الله بن الحكم) بمدينة الفسطاط وبعد أن خالط المصريين وعرف ما عندهم من تقاليد وأعراف وعادات تخالف ما عند أهل العراق والحجاز أعاد النظر فى مذهبه القديم المدون بكتابه (الحجة) و جاء منه ببعض المسائل فى مذهبه الجديد فى كتاب (الأم) الذى أملاه على تلاميذه فى مصر، ويمكن إعتبار فقه الشافعى وسط بين أهل الحديث و أهل الرأى...

وقد رتب الشافعى أصول مذهبه كالآتى كتاب الله أولا، وسنة الرسول صلى الله عليه و سلم ثانياً، ثم الإجماع والقياس والعرف والإستصحاب، وقد دون الشافعى مذهبه بنفسه.

ويعد الشافعى أول من ألف فى علم أصول الفقه، ويتضح ذلك فى كتابه المسمى (الرسالة) وقد كتبها فى مكة وأرسلها إلى (عبد الرحمن بن مهدى) حاكم العراق حينذاك – مع الحارث بن شريح الخوارزمى البغدادى الذى سمى بالنقال، بسبب نقله هذه الرسالة، ولما رحل الشافعى إلى مصر أملاها مرة أخرى على (الربيع بن سليمان المرادى)، وقد سمى ما أملاه على الربيع (بالرسالة الجديدة)، وما أرسله إلى (عبد الرحمن المهدى) (بالرسالة القديمة)، وقد ذهبت الرسالة القديمة و ما بين أيدينا هو الرسالة الجديدة التى أملاها على الربيع..

ومن أقوال الشافعى (من حفظ القرآن نبل قدره ومن تفقه عظمت قيمته، ومن حفظ الحديث قويت حجته و من حفظ العربية والشعر رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم)، ومن أشعاره:"تعيب زماننا و العيب فينا – و ما لزماننا عيب سوانا \ و نهجو ذا الزمان بغير ذنب – ولو نطق الزمان لنا هجانا \ و ليس الذئب يأكل لحم ذئب – ويأكل بعضنا بعضا عيانا"وقد إنتشر مذهب الشافعى فى الحجاز والعراق ومصر والشام وفلسطين وعدن وحضرموت، وهو المذهب الغالب فى أندونيسيا وسريلانكا ولدى مسلمى الفلبين وجاوه والهند الصينية وإستراليا. و قد إستمر الشافعى فى مصر يفتى و يعلم حتى توفى – رحمه الله – سنة ٢٠٤ هـ.

المبحث الثاني

جهود الأمام الشافعى في علم الجغرافيا

لاشك أن إسهامات الأمام الشافعى كانت في مختلف العلوم، وليست قاصرة على علم بعينه، فقد كان شاغله الأول علوم الدين، لهذا فقد امتد بعلمه ومعرفته إلى مختلف ميادين المعرفة، حتى أنه كان بمثابة موسوعة علمية، وكان من هذه الميادين علم الجغرافيا، رغم أن هذه الإسهامات لم يسبق لأحد أن تناولها بالدراسة والتمحيص، وحصر هذه الإسهامات من شأنه أن يعطى ثراء للمكتبة الجغرافية بصفة عامة، والمكتبة الجغرافية العربية بصفة خاصة، لأهمية تلك الفترة جغرافياً وتاريخياً، وأهمية المعلومات الجغرافية التي تضمنتها كتبه على اختلافها.

أولاً– مصادر المعلومات الجغرافية لدى الإمام الشافعي:

استسقى الإمام الشافعي معلوماته الجغرافية من خلال تنقله ورحلاته بين البلاد العربية من فلسطين إلى مكة واليمن والعراق ومصر، وساعده على ذلك، بصفة خاصة، انه كان شديد الذكاء، سريع الحفظ، مما ساعده في أن يضيف ويسهم في علم الجغرافيا. ومن المبدع إننا نجد أن الأمام الشافعى دائما يذكر علم الجغرافيا حتى في أقواله المأثورة كما هو في شأن ذكره للأرض حين قال:

سأضرب في طول البلاد وعرضها أنال مرادي أو أموت غريبا

فإن تلفت نفسي فلله درها وإن سلمت كان الرجوع قريباً

ثانياً: جهود الإمام الشافعي في علم الجغرافيا:

الجغرافيا علم يدرس ظاهرات سطح الأرض الطبيعية، كالجبال والسهول، والغابات والصحارى، والحيوان والإنسان، كما يدرس الظاهرات البشرية التي صنعها الإنسان على هذا السطح، كالمدن والإنتاج الاقتصادي: الزراعي والمعدني، والتجارة وطرق المواصلات، وميدان هذا العلم الطبقة العليا من قشرة الأرض والطبقة السفلى من الغلاف الجوي (المعجم الجغرافي، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م).

ولقد كتب علماء المسلمين في جغرافية الأرض ورسموا خرائطها، قبل أن ينقلوا كتب غيرهم إلى العربية، استجابة لدعوة الإسلام الحنيف إلى طلب العلم النافع، وإعمال الفكر والعقل في كل ما خلق الله تعالى وسخره لخدمة الإنسان، بما في ذلك الأرض التي يحيا عليها، فهي أصل وجوده من ترابها ومائها خلق، وعلى صدرها وخيراتها يعيش، وإليها يعود ويتلاشى ترابا في ترابها، ومنها يبعث تارة أخرى قال تعالى:"هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور"(سورة الملك: ١٥) وقال سبحانه:"منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارةً أخرى"(سورة طه: ٥٥).

ومنذ القرن الأول للهجرة اتسعت معرفة المسلمين بأقسامها وصفاتها لاتساع فتوحاتهم وعرفوا منذ ذلكالحين عمل الخرائط الجغرافية وقراءتها، فيروى أنه لما غزا قتيبة بن مسلم الباهلي مدينة بخارى صعب عليه فتحها، فكتب بذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، فكتب إليه الحجاج يطلب منه أن يصورها (أي يرسم خارطتها وما حولها) ويرسل صورتها إليه، وقد أشار الحجاج على قتيبة الباهلي بطريقة فتحها سنة ٩٠هـ.

وكانت الدولة الإسلامية الكبرى المترامية الأطراف تجتمع على وحدة دين ولغة وثقافة، فاجتهد علماء الحضارة الإسلامية في دراستها عن طريق الرحلات والأسفار والتعرف إلى تضاريس الأقطار والبلدان لتوثيق الصلات بينها، وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بالعدل بين سكانها، وكان لاكتشاف الأجهزة العلمية، كالبوصلة والمزولة والأسطرلاب، أثر مهم في تسهيل الرحلات وتشجيع الرحالة.

وتميز الجغرافيون في الحضارة الإسلامية بنظرتهم العلمية الواقعية لمختلف الموضوعات الجغرافية، وكان الخوارزمي (ت: ٨٥٠م) من أعلام المرحلة الأولى لتطور الفكر الجغرافي الإسلامي، فقد وضع كتابًا عن"صورة الأرض"قال عنه"نيللينو": إن مثل هذا الكتاب لا تقوى على وضعة أمة أوروبية في فجر نهضتها العلمية فصاحبه من أبرز العلماء في عصر المأمون، وهو يعالج في كتابه بصفة رئيسية أهم الموضوعات الجغرافية المتعلقة بخطوط طول وعرض الأماكن والجبال والبحار والأنهار، وأسماء المدن الواقعة على الجانب المعمور من الأرض مرتبة حسب ورودها في الأقاليم السبعة.

وقد ساعدت مثل هذه البدايات العلمية تدريجيًا على أن تبلغ الجغرافيا درجة عالية في البحث المبني على الاختبار الشخصي والمعرفة المكتسبة من السفر والتنقل، وازدهرت حركة التأليف الجغرافي، وزاد الاهتمام بفروع الجغرافيا الرياضية والفلكية والطبيعية والبشرية، وغيرها وواكب هذه الجهود العلمية الابداعية اتساع رسم الخرائط حتى شمل العالم الإسلامي كله ما يمكن أن نسميه أطلس العالم الإسلامي، وقد أحصى"ميللر"الخرائط التي رسمها المسلمون للعالم الإسلامي فوجدها

مائتين وخمسا وسبعين خارطة، باستثناء خرائط الإدريسي التي وصفها"ميللر"بأنها تمثل مدرسة جغرافية خاصة ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للأوروبيين.

وهنا تجدر الإشارة إلى جانب مهم، يغفل عنه الكثيرون، وهو دور التجربة في البحث الجغرافي، خاصة أن الجغرافي المعاصر يرى في"الرحلة"عين الجغرافيا المبصرة في الدراسة الميدانية، وفي ضوء هذه الملاحظة المهمة يشهد التراث الجغرافي لحضارتنا الإسلامية بسبق علمائها إلى مفهوم البحث الجغرافي وإنجازه عن طريق الرحلة الميدانية، وذلك قبل الجغرافي المعروف"اسلندر همبولت"الذي يعده المؤرخون واحدًا من عمالقة الجغرافيا في القرن التاسع عشر الميلادي، وينسب إليه البعض أبوة الرحلة الجغرافية المتخصصة، عندما خرج في الرحلة التي غطت مساحات من أمريكا اللاتينية وشرق أوروبا وسيبيريا وعاد منها لكي يصبح جغرافيًا مرموقًا، ونسوا العشرات من علمائنا الذين سبقوه إلى مثل هذه الرحلة الميدانية.

وتبدو المواد المتّصلة بالجغرافية عند أدبائنا متركزة حول: وصف المدن والأمصار، أو تحديد مواقعها، والمسافات التي تفصل بينها، وذكر خصائصها وهوائها، ومواردها الطّبيعيّة، وكذلك تتناول الطّرق البرّيّة والبحريّة، والمسالك والمفاوز، والفجاج، وقد تتخصّص أكثرها في الجغرافيا، فتتعرّض إلى تحديد صورة الأرض، أو ما يعرف بعلم الخرائط.

وكان للإمام الشافعي إسهامات متعددة في الجغرافيا، حيث تضمنت آثاره فروع الجغرافيا المختلفة، مما يدل على سعة أفقه، وكثرة اطلاعه، ناهيك عما شاهده خلال رحلاته المختلفة (الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الرحلة بين الأدب و الجغرافية).

١ – الرحلات العلمية للإمام الشافعي:

يرتبط مفهوم الرحلة في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل، أو الجياد ونحوهما، وترويضها حتى تصير"راحلة"، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله:"أرحل الرجل البعير(...) إذا أخذ بعيراً صعباً، فجعله راحلة"، ثم يضيف ابن منظور:"الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله.."ونستنتج من هذا القول، أن تحقيق متعة الاكتشاف من ناحية والرغبة في مكابدة الشدائد، والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة، ويختم ابن منظور القول:"وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده".

وتختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية، التي تستدعي القيام بها، غير أن هناك أغراضاً أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فناً أدبياً مميزاً، حدده الباحثون حديثاً، وصنفوه ضمن

أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعاً له، لكن فريقاً آخر من الباحثين، يرون أن لهذا الفن قيمتين: الأولى علمية، والأخرى أدبية؛ فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية:"إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير".

وهذا يعني، أن أي رحلة كي تعد فناً، لا بد أن تحمل في الوقت نفسه هاتين القيمتين، أعني العلمية والأدبية، لكن نسبة إحداهما إلى الأخرى، متفاوتة في الرحلات العربية على الأقل، فبعض الرحلات يغلب عليه الجانب العلمي، الجغرافي والتاريخي، وبعضها الآخر يغلب عليه الجانب الذاتي أو الأدبي الوجداني (الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، الرحلة بين الأدب و الجغرافية).

وقد حث النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم صحابته على الخروج لطلب العلم، كما لَفت القرآنُ الكريم أنظارَ المسلمين إلى أهميته، في البداية نشطت الرِّحلة إلى طلب العلم امتثالاً لأوامر الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولَمَّا فتح الله على العرب المسلمين البلاد، ودخل أصحابُها في دين الله، توجَّه أصحاب تلك البلاد المفتوحة إلى عاصمة الخِلافة، وإلى مكَّة والمدينة بصفتهما مركزَ الدَّعوة، وموطن الصحابة، حفظةِ عِلم الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم.

وتميَّز العصر الأُمويُّ في القرن الأول الهجري – عصر صدر الإسلام – بنشاط الرِّحلة في طلب العلم، وخاصَّة الرحلةَ إلى طلب الإسناد العالي للحديث، حيث يرحل طالبُ العِلم (الراوي)، إلى الصحابي حيث هو، فيروي عنه الحديثَ الذي سمعه من رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – مباشرةً، وهو أخصرُ طرق الحديث المتَّصِلة، فبدلاً من أن يأخذ التابعيُّ عن تابعيٍّ، يأخذ الراوي عن الصحابي مباشرة،"حتى لقد كان أحدُهم يرحل المراحل، ويقطع الفيافي والمفاوز، ويجوب البلادَ شرقًا وغربًا في طلب حديث واحد؛ ليَسمعَه مِن راويه، فمنهم مَن يكون الباعثُ له على الرحلة طلبَ ذلك الحديث لذاته، ومنهم مَن يقرن بتلك الرغبة سماعَه من ذلك الراوي بعينه؛ إمَّا لثقته في نفسه، وإمَّا لعلوِّ إسناده، فانبعثتِ العزائم إلى تحصيله.

"ولم تكن المدينة النبوية هي المعقلَ الوحيد للرِّواية – وإن كانت تحتلُّ الصدارة في هذا الباب – بل قصد طلاب العلم بلدانًا ومدنًا أخرى، مثل مكَّة والطائف، واليمامة وصنعاء"(ابن سعد، ١٩٦٨، ٤٤٣/٥، ٥٠٣،٥٢٣،٥٤٩)، وذلك بسبب انتشار الصحابة في الأمصار، ولقد أدَّى انتشار العلماء إلى تعدُّد المراكز العِلميَّة، وأسهمت المراكزُ العلمية بدَور كبير في زيادة النشاط العِلمي، كما أسهمت الرِّحلةُ إلى طلب العلم في سرعة انتشار الآراء والمذاهب والأفكار على أيدي طلاَّب العِلم والمتعلِّمين، ولم يهتمَّ أولئك المحدِّثون العِظام (البخاري ومسلم) بتدوين أخبار رحلاتهم، ولو فعلوا ذلك لقدَّموا معلوماتٍ نادرةً وغزيرة، وأكثر إفادة من التي نجدها في كتب الرحلات المتأخِّرة، مثل: رحلة ابن جبير، وابن بطوطة.

"كانت الرغبة الشخصيَّة في الترحال أو السَّفر لطلب العلم والمعرفة من أقوى الدوافع للمسلمين لزيارة البلادِ التي تُحقِّق هدفَهم؛ بغضِّ النظر عن الصُّعوبات التي يمكن أن تصادفَهم"(شرف، بدون تاريخ، ص ٥٠).

تحمَّل طلاَّب العِلم مشقَّاتِ السفر والترحال إلى مراكز العِلم والمعرفة، ولم يقفْ طلب العلم عند التفقُّه في الدِّين وعلومه فقط؛ بل كانت هناك رحلات لطلب العلوم الدنيويَّة أيضًا، ثم تطوَّرت هذه الرحلات بعدَ إنشاء المكتبات في عواصم الخِلافة الإسلاميَّة، فأصبحت محطَّ رحال طلبة العلم، وكان للخلفاء المسلمين دَورٌ كبير في تشجيع طلاَّب العِلم على السفر إلى مراكز الحضارة والمعرفة.

وكان من هذه الرحلات رحلة الإمام الشافعي التي تنتهي به إلى مصر، وقد رواها تلميذُه الربيع بن سليمان، وهي تدور حولَ رحلة الإمام الشافعي طلبًا للعلم، مِن فلسطين إلى مكَّة، ثم إلى المدينة، ونزوله على الإمام مالك، والتعلُّم على يديه، وتحصيل مذهبه، ثم انتقل إلى العِراق، وبعدَ وفاة الإمام مالك ضاق به الحِجاز، فغادرَها إلى مصر، وبها أقام ما تبقَّى من حياته، وفيها نشَر أُسس مذهبه، وذاع صِيتُه، وارتحل إليه طلاَّب العلم من كلِّ مكان، وهذا النَّوع من الرحلات لا يحفل بذكْر الأماكن، أو وصْف المدن التي شدُّوا الرِّحال إليها، أو الاهتمام بعادات وتقاليد الشُّعوب، لم تهتمَّ هذه الرحلة إلاَّ بطلب الحديث، أو بتوثيق الرِّواية، أو طلب الإسناد العالي.

لقد أسهم الإمام الشافعى رحمه الله في فن الرحلات العربية في رحلته الشهيرة من مكة إلى المدينة، وهو بذلك يعد من الرحالة كابن بطوطة، وابن جبير، وناصر خسرو وغيرهم من الرحالة الذين اثروا المكتبة العربية بالمعلومات المفيدة عن أماكن الرحلات (الأنصاري، ١٩٧٦، ص ١١).

ونورد على سبيل المثال ما ينسب للإمام الشافعي من قوله رحمه اللّه حاضاً على الرحلة والسفر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفريج هم واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار ذل وغربة
وقطع فياف وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته
بدار هوان بين واش وحاسد

ولقد اعتنى عدد من الباحثين في أدب الرّحلة، باستخراج وتحليل المواد الجغرافيّة الواردة في كتب الرّحلات العربيّة، واعتبروها منابع غنيّة للحقائق والمعلومات الجغرافيّة عن البلدان الإسلاميّة. ورأى بعضهم أنّ الرّحّالين كانوا من السبّاقين إلى التأليف في علم الجغرافيا.

ونذكر من بين هؤلاء الذين عالجوا المواضيع الجغرافيّة في كتبهم المستشرق الرّوسي (أغناطيوس كراتشكوفسكي)، الذي صنّف الرّحلة العربيّة ضمن ما سمّاه بـ:"الأدب الجغرافي"الذي عدّه الباحثُ فرعاً من فروع الأدب العربي، وقد تنبّه كراتشكوفسكي إلى قيمة مؤلّفات الأدب الجغرافي العربي، لكونها مصادر هامّة وأحياناً الوحيدة، التي عرّفت بمدن وبلدان العالم، في حقب معيّنة مع حفاظها غالباً على الطّابع الفنّي في الكتابة واستعان جورج فضلو حوراني بما ورد في أدب الرّحلات العربيّة من معلومات جغرافيّة عن الملاحة في المحيط الهندي.

- مميِّزات الرحلات العلمية:

- تحلِّي المسلمين الأوائل بالرُّوح العلميَّة، كما تحلَّوْا بحيوية ونشاط دفعتهم إلى جَوْب الآفاق، وأخْذ العِلم من شتَّى المراكز الفكريَّة.

- تلاشت رُوح العصبيَّة القوميَّة، واختلط المشارقة بالمغاربة، واليمنيُّون بالشاميِّين، والإيرانيُّون بالجزيرة العربية، فلم يكن بين الشُّعوب الإسلامية أيُّ مظهر من مظاهر العصبيَّة أو النعرات القبليَّة أو الطائفيَّة أو الشعوبيَّة، ولم يكن ذلك فقط أيَّامَ تمتُّع البلاد العربية والإسلامية بوحدة سياسيَّة واحدة، وقيادة واحدة، ورايةٍ واحدة؛ بل ظلَّت هذه الرُّوح موجودةً حتى بعد انقسام العالَم الإسلامي، وتعدُّد الدول والقيادات، وتعدُّد ألوان الرايات (معوض، ٢٠٠٩/٦/٢٨ ميلادي، أنظر: http://www.alukah.net/Culture/٠/٦٤٢٦/).

٢- في الجغرافية الإقليمية:

اهتم الإمام الشافعي بالجغرافية الإقليمية، خاصة وأنه قام بزيارة للعديد من الأقاليم خلال الرحلات التي قام بها، ويتضح ذلك بشكل جلي من خلال وصفه لبلاد الحجاز حيث يرى رحمه الله أن الحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها، ولا يحب دخول مشرك بلاد الحجاز، ولا يقيم الذمي أكثر من ثلاث ليال، لكنه لا يرى مانعاً من أن يركب أهل الذمة بحر الحجاز، ويمنعون من المقام في سواحله، وكذلك إن كانت في بحر الحجاز جزائر، وجبال تسكن منعوا سكناها لأنها من أرض الحجاز **(الأم، ج٤، ص١٧٧.١٧٨)**.

٣- في الجغرافية الطبيعية:

يذكر الأمام رحمه الله ويقول فكانت العلامات جبالاً وليلاً ونهاراً فيها أرواح معروفة الأسماء وان كانت مختلفة المهابة وشمس وقمر ونجوم معروفة المطالع والمغرب والمواضيع من الفلك (الأم، الجزء الأول، ص ٥). وقال الشافعى رحمه الله: فكل شيء من سما وارض وذي روح وشجر وغير ذلك فالله تعالى خالقه وكل دابة فعلى الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها (الأم، الجزء الأول، ص ١٠).

ويحدد الأمام رحمه الله الجبال والليل ولم يكتف بذلك بل حدد الشمس والقمر والنجوم من حيث موضعها وأماكن شروقها وغروبها وأنها جزءا من الفلك.

- ظاهرة كسوف الشمس والقمر:

قال الربيع أخبرنا الشافعى قال أخبرنا مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس قال خسفت الشمس فصلى رسول الله فحكي ابن عباس أن صلاته ركعتان في كل ركعة ركوعان ثم خطبهم فقال أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لايخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله (الأم، الجزء السابع، ص ٢٢٦)، أي أن هناك تأكيد من الأمام أن كسوف الشمس ظاهرة طبيعية ترتبط بالجغرافيا الطبيعية وهى من عند الله وليس للبشر دخل في هذه الظاهرة وليس لها أية علاقة بأي خرافات كان يذكرها العرب قديماً في تفسير هذه الظاهرة.

٤- في جغرافية النقل:

وتبرز أهمية جغرافية النقل لدى الإمام الشافعي في دعوته للتنقل والترحال والضرب في الأرض:

أ- **دعوة إلى التنقل والترحال** (جنات عبد العزيز دنيا، من روائع الإمام الشافعى، الجزء الأول، نقلاً من موقع http://www.almawa.net/shr/shr١.htmi ٢٠١٢م.

ما في المقام لذي عقل وذي أدب... من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه... وانْصَبْ فإن لذيذ العيش في النَّصب
إني رأيت ركود الماء يفسده... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة. ..لملَّها الناس من عجم ومن عرب
والتِّبرُ كالتُّرب مُلقى في أماكنه... والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرّب هذا عزّ مطلبه... وإن تغرب ذاك عزّ كالذهـــــــــــب

ب- **الضرب في الأرض**

سأضرب في طول البلاد وعرضها... أنال مرادي أو أموت غريبا

فإن تلفت نفسي فلله درها. ..وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ونجد في العنصرين السابقين اهتمام الأمام الشافعى بعنصر التنقل والسفر بحثاً عن الرزق.

٥- **في الجغرافية السياسية:**

يتحدث عن الملوك على النحو التالي:

أبواب الملوك

إن الملوك بلاء حيثما حلوا... فلا يكن لك في أبوابهم ظل

ماذا تؤمل من قوم إذا غضبوا... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا

فاستعن بالله عن أبوابهم كرما... إن الوقوف على أبوابهم ذل فرجت

ولرب نازلة يضيق لها الفتى..... ذرعا وعند الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها..... فرجت وكنت أظنها لا تفرج

٦- **في الجغرافية الاقتصادية:**

ذكر الأمام رحمه الله ً وهكذا كل صنف يابس من المأكول والمشروب فالقول فيه كما وصفت في الحنطة(القمح) والتمر لا يختلف في حرف منه وذلك يخالف الشعير بالشعير والذرة بالذرة والسلت بالسلت والدخن بالدخن والأرز بالأرز ومأكل الناس مما ينبتون أو لم ينبتون مثل الغث وغيه من حب الحنظل والسكر، وغيره مما أكل الناس ولم بنبتوا (الأم، الجزء الثالث، ص ١٨).

ويحدد الأمام رحمه الله البيع وذكر في ذلك بيع التمر ولم يكتف بالبيع بل حدد طريقة البيع حيث قال ً والتمر صنف ولا بأس أن يبتاع صاغ تمر بصاغ تمر يداً بيد ولا يتفرقان حتى يتقابضا ولا بأس إذا كان صاغ أحدهما صنفاً واحداً أو صاغ الآخر صنفاً واحداً وان كان بردى وعجوة بعجوة أو بردى أو أن يكون صاغ أحدهما من تمرين مختلفين وصاغ الآخر من تمر واحد والأخير يباع وزناً وذلك أن وزن التمر يتابين فيكون صاغ وزنه أرطال وصاغ أخر وزنه أكثر منها فلو كيلا كان صاغ بأكثر من صاغ كيلاً وهكذا في كل كيل لا يجوز أن يباع بمثله وزناً وكل وزن فلا يجوز أن يباع بمثله كيلاً وإذا اختلف الصنفان فلا بأس أن يبتاع كيلاً وأن كان أصله الوزن (الأم، الجزء الثالث، ص١٨).

هذا تأكيد على كيفية إجراء البيع والسلع التي كان يتم بيعها في ذلك الوقت.

وهنا يلاحظ أن الأمام يؤكد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في ضرورة المكيال من قبل البائع وعلى المشترى أن يقبض الثمن، ويظهر الأمام تفسيرات أخرى في باب البيع مرابحة، وحدد

الربح بالعشر، وكذلك في باب الراهن والمرتهن، وكل هذه الأشياء تصب في صالح الجغرافية الاقتصادية، بل حدد أكثر من سلعة في البيع كالتمر والخيار والحيوانات.

٧- في جغرافية الخدمات التعليمية:

- آداب التعلم

اصبر على مر الجفا من معلم... فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة... تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه... فكبر عليه أربعا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى... إذا لم يكونا لا اعتبار لذات

وهنا يحث الأمام رحمة الله عليه بطلب العلم ويظهر الامية بالجهل وان الإنسان يجب ان يتعلم وهى دعوة مبكرة للقضاء على الأمية نادى بها مبكراً

- فضل العلم

رأيت العلم صاحبه كريم.....ولو ولدته آباه لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن.....يعظم القوم الكرام
ويتبعونه فى كل حال.....كراعى الضان تتبعه السوام
فلولا العلم ماسعدت رجال..... ولاعرف الحلال ولا الحرام

وهذه الابيات يوضح فيها لن المتعلم يكون امام يتبعه البشر، ويوضح ان للعم دور كبير فى معرفة الحلال والحرام.

- متى يكون السكوت من ذهب :

إذا نطق السفيه فلا تجبه... فخير من إجابته السكوت
فإن كلمته فرّجت عنه..... وإن خليته كمدا يموت

- إدراك الحكمة ونيل العلم :

لا يدرك الحكمة من عمره... يكدح في مصلحة الأهل
ولا ينالالعلم إلا فتى... خال من الأفكار والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذي... سارت به الركبان بالفضل
بُلي بفقر وعيال لما... فرق بين التبن والبقل

- العلم رفيق نافع :

علمي معي حيثما يممت ينفعني...قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي.. أوكنت في السوق كان العلم في السوق

- **دعوة إلى التعلم:**

تعلم فليس المرء يولد عالما... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده... صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالما... كبير إذا ردت إليه المحافل

- **الإعراض عن الجاهل:**

أعرض عن الجاهل السفيه..... فكلما قال فهو فيه
ما ضر بحر الفرات يوماً..... إن خاض بعض الكلاب فيه

- **وفي مخاطبة السفيه قال:**

يخاطبني السفيه بكل قبح..... فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما.....كعود زاده الإحراق طيبا

٨- في الجغرافية الاجتماعية:

ما ذكره الإمام رحمه الله من كتاب الكفارات والنذور، وكتاب النكاح، ومن كتاب الصداق والايلاء، ومن كتاب الرهون، ومن كتاب الخلع والنشوز، ومن كتاب عشرة النساء، ومن كتاب الطلاق والرجعة، ومن كتاب القرعة والنفقة على الأقارب ومن كتاب الرضاع.....الخ (الأم، الجزء السادس، ص ص ٢١٠- ٢٧٤). وقد أوضح مجموعة كبيرة من العلاقات الاجتماعية التي لها أثر كبير على جوانب الجغرافية الاجتماعية.

الخاتمـــة: النتائج والتوصيات

تعد إسهامات الأمام الشافعى في علم الجغرافيا ذات قدر ليس بالقليل، وقد اتضح ذلك من خلال البحث. وهذه الإسهامات الجغرافية والتي تعتبر إضافة ليس لعلم الجغرافيا وإنما للمكتبة الجغرافية العربية وتمثلت في التعرض لأكثر من فرع من فروع علم الجغرافيا الطبيعية والفلكية والبشرية والاقتصادية وجغرافية النقل وجغرافية الخدمات التعليمية.....الخ.

ويمكن حصر نتائج الدراسة على النحو التالي:

١- يعد الإمام الشافعي من الرحالة المعدودين كابن بطوطة، وابن جبير، وناصر خسرو وغيرهم من الرحالة الذين اثروا المكتبة العربية بالمعلومات المفيدة عن أماكن الرحلات.

٢- استسقى الإمام الشافعي معلوماته الجغرافية من خلال تنقله ورحلاته بين البلاد العربية من فلسطين إلى مكة واليمن والعراق ومصر.

٣- تحلِّي المسلمين الأوائل بالرُّوح العلميَّة، كما تحلَّوْا بحيوية ونشاط دفعتهم إلى جَوْب الآفاق، وأخْذ العِلم من شتَّى المراكز الفكريَّة.

٤- اهتم الإمام الشافعي بالجغرافية الإقليمية، خاصة وأنه قام بزيارة للعديد من الأقاليم خلال الرحلات التي قام بها، ويتضح ذلك بشكل جلي من خلال وصفه لبلاد الحجاز.

٥- تعرض الإمام الشافعي إلى العديد من الظاهرات الطبيعية مثل الجبال والكسوف والخسوف

٦- تبرز أهمية جغرافية النقل لدى الإمام الشافعي في دعوته للتنقل والترحال والضرب في الأرض.

٧- تحدث عن بعض الظاهرات السياسية متمثلة في الملوك وهو يندرج في إطار الجغرافية السياسية.

٨- أوضح مجموعة كبيرة من العلاقات الاجتماعية التي لها أثر كبير على جوانب الجغرافية الاجتماعية.

- التوصيات:

إن إسهامات الأمام الشافعى من الناحية الجغرافية لم يتناولها أحد بالبحث والدراسة وحصر هذه الأسهمات من شله يعطى ثراء للمكتبة الجغرافية بصفة عامة والمكتبة الجغرافية العربية بصفة خاصة، وعلى ضوء ذلك، وعلى ضوء نتائج الدراسة فإننا نوصي بما يلي:

١- تشكيل لجنة من المتخصصين في فروع الجغرافيا المختلفة لبيان إسهامات الإمام الشافعي في فروع علم الجغرافيا.

٢- تسليط الضوء على الرحلات العلمية للإمام، واستخلاص ما بها من عبر وعظات.

٣- الدعوة لرسم خريطة متكاملة توضح رحلاته ومناطق إقامته تعميماً للفائدة.

٤- الدعوة إلى التركيز على جوانب جديدة في تراث الإمام باعتباره موسوعة علمية فريدة.

المصادر والمراجع

١. **ابن جبير،(محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ٥٣٩هـ/ ٦١٤هـ):** رحلة ابن جبير في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، عصر الحروب الصليبية ، دراسة وتحقيق **حسين نصار**، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م.

٢. **أحمد أبو سعد**، أدب الرحلات، دار الشروق الجديد، بيروت، ١٩٦١م.

٣. **الامام الشافعى أبى عبد الله محمد بن إدريس ١٥٠هـ -٢٠٤هـ، كتاب الام، ٧ أجزاء**، الهيئة الصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

٤. التجيبي السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق واعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م.

٥. **الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب**، الرحلة بين الأدب و الجغرافية.

٦. **العبدرى(أبو عبد الله محمد بن محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدرى الحيجى، بدأ رحلته ٦٨٨هـ)**، الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م.

٧. **المعجم الجغرافي**، مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٨. **جنات عبد العزيز دنيا**، من روائع الامام الشافعى، عدد ٢جزء، نقلاً من موقع http://www.almawa.net/shr/shr١.htmi ٢٠١٢م.

٩. **حسني محمود حسين**، أدب الرحلة عند العرب، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

١٠. **زكي محمد حسن**، الرحالة المسلمون في العصور الوسطي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٤٥م.

١١. **شاكر خصباك**، رحلة ابن جبير ومكانتها في الأدب الجغرافي العربي، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد السابع، ١٩٧١م.

١٢. **عبد العزيز طريح شرف**،"الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي"، مؤسَّسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.

١٣. **شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦م.**

١٤. **عبد العال عبد المنعم الشامي**، مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرن الثالث والتاسع الهجرى، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مقدمة لقسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م.

١٥. **عبد العال عبد المنعم الشامى**، نظم الري والزراعة في مصر في الكتابات العربية، الندوة العلمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب، إسهامات العرب في علم الفلاحة، الكويت، ١٩٨٨م.

١٦. **عبد العال عبد المنعم الشامى**، الطرق والمسالك الشرقية لمصر في العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٩١م.

١٧. **عبد القدوس الأنصاري**، مع ابن جبير في رحلته، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م.

١٨. **عبد اللطيف البغدادى**، الافادة والاخبار، الطبعة الاولي، مطبعة وادى النيل، القاهرة، ١٢٨٦هـ.

١٩. **كراتشكوفسكي**، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ج١، منشورات جامعة الدول العربية، ١٩٦١م.

٢٠. **محمد مصطفي زيادة**، محاضرة عن ابن جبير، مكتب التبادل الثقافي للمغرب، بالقاهرة، ١٩٣١م.

٢١. **مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ج ١، ط٢، القاهرة ١٩٧٢م.**

٢٢. **ناصر خسرو علوي** (٣٩٤هـ/ ٤٥٣هـ)، سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٩٣م.

٢٣. **نقولا زيادة**،الرحالة العرب، دار الهلال، القاهرة، ١٩٥٦م.